تُراث

torathehc

تراثية ثقافية منوعة تصدر عن نادي تراث الإمارات العدد 288 أكتوبر 2023

الحكاية الشعبية ..
حاملة قيم الشعوب وتراثها

توظيف أركان التعليم...
لتدريس الحكايات الشعبية في رياض الأطفال

الشعر النبطي:
صوت من حياة المجتمع الإماراتي

ديوان بن سالمين
للشاعر مبارك بن ناصر بن سالمين المنصوري

بناء الذات في موروث الأمثال الإماراتية

ذكريات زمن البدايات:
مسؤول الأمن حمودة بن علي

أسطورة سلامة وبناتها: مقاربة نقدية

أديسون وكنز برامز المكنون

البنية القصصية
في ملحمة العقيلي واليازية

نادي تراث الإمارات يشارك في معرض أبوظبي الدولي للصيد والفروسية

قراءة في كتاب: قصص الأمثال الشعبية الإماراتية

عبد الحكيم الزبيدي

غالباً ما ينشأ المثل الشعبي مرتبطاً بحكاية كانت هي السبب في إطلاقه، هذه الحكاية تفسر ألفاظ المثل، وتصف موضع التشبيه فيه. إلا أن معظم حكايات الأمثال قد ضاعت، مع الأسف، ولم تُحفظ، بينما ظل المثل حاضراً في الأذهان، يتوارثه الناس جيلاً بعد جيل، ونُسيت أو تنوسيت الحكاية المرتبطة به. ومن الأمثال القليلة التي ظلت محتفظة بحكايتها والقصة المرتبطة بها، المثل القائل: يا رَمْضانْ دُولكْ يْرابِكْ[1]، فلهذا المثل قصة طريفة خلاصتها أن رجلاً اشترى تمراً ليأكل منه مع أسرته عندما يهلّ شهر رمضان الفضيل وأوصى زوجته وأبناءه بعدم فتحه أو الاقتراب منه، وقال لهم: «هذا البِراب حق رمضان»، وهو يقصد أنه اشترى هذا التمر ليكون إفطاراً لهم خلال شهر رمضان المبارك، وأتعبهم بكثرة الحرص عليه والاهتمام به ومنعهم من الاقتراب منه، فمر بهم رجل اسمه رمضان فأعطته الزوجة الجراب ليتخلصوا منه، ظناً منهم أنه يخصّه. ويُضرب هذا المثل عندما يُراد التّخلص بطريقة خاطئة من أمر أتعب صاحبه.

ونظراً لعدم وجود قصص متداولة حول كثير من الأمثال الشعبية الإماراتية، فقد حاول بعض الدارسين أن ينسجوا قصصاً وحكاياتٍ من خيالهم لبعض الأمثال الشعبية، يكون فيها شرح للمواقف التي يمكن أن يستخدم فيها المثل. ومن هؤلاء الدكتور علي عبد القادر الحمادي الذي جمع في كتابه (قصص الأمثال الإماراتية) نحو ثلاثين مثلاً شعبياً من الإمارات، وصاغ لكل مثل حكاية تشرح موقفاً يمكن أن يستخدم فيه المثل وتُبين الحكمة التي ينطوي عليها المثل. وقد صاغها بأسلوب سهل مبسط يتناسب مع الفئة العمرية الموجه لها الكتاب وهي فئة الأطفال، والدكتور علي الحمادي متخصص في أدب الأطفال وحاصل على درجة الدكتوراه في مجال أدب الطفل. وسنتناول في هذه المقالة خمساً من هذه الحكايات والقصص على سبيل التمثيل، لنبين كيف تمكّن الكاتب من ترجمة الأمثال الشعبية الإماراتية إلى قصص وحكايات تشرح هذه الأمثال للأطفال وتقربها إلى أذهانهم من خلال الحكاية المرتبطة بكل مثل.

فعن المثل الشعبي الإماراتي القائل: (اللّي في الْجِدرْ يْطَلّعَه المِلاس)، تخيل الباحث القصة التالية: «عَادَ حَميدٌ إلى مَنْزِلِهِ مُسْرِعاً؛ إنَّهُ في غايَةِ الشَّوْقِ لِيَعْرِفَ الْأَخْبَارَ الجَديدَةَ مِنْ والِدَتِهِ؛ فقدْ صَارَ في سِنِ الزَّواج، وخَطَبَتْ لَهُ وَالدَتُهُ فَتاةً من الحَيِّ هِيَ حَمْدَةُ ابْنَةُ الجِيْرانِ، لكِنْ لَمْ يَأْتِهِمُ الرَّدُ بَعدُ. حِيْنَ دَخَلَ حَمِيْدُ الدَّارَ رَأَى أُمَّهُ قد انْتَهَتْ مِنْ إعْدَادِ الغَدَاءِ، لَقَدْ وَضَعَتِ القِدْرَ على السرودِ (الحَصِير)، ووَضَعَتْ بِجَانِبِهِ المِلاس (مِغْرَفَة الطعام) استعداداً لوَضْعِ الطَّعَامِ في الأَطْباقِ. سَأَلَ أَحْمَدُ وَالدَتَهُ: مَا الجَدِيدُ؟ هل هُناكَ أَخْبارُ جَدِيْدَةٌ؟ قَالَتِ الأُمُّ : سَتَأْتِي الأَخْبارُ

عَاجِلاً أَم أَجلاً، فلا تَسْتَعْجِل. ثمَّ نَظَرَتِ إلى القِدْرِ والمِلاس. وقَالَتْ: (اللّي في الْجِدرْ يَطَلّعَه الملاس)»[2].

فنجد الكاتب قد صاغ قصة المثل بعبارات فصيحة سهلة ومبسطة، وشرح معاني الألفاظ العامية الواردة في المثل بين قوسين. وهذا المثل يُضرب للحث على الصبر في انتظار ظهور ما خفي من الأحوال والأحداث وإن طالت مدة الكتمان، فالإنسان بطبعه متلهف لسماع الأخبار الجديدة، خاصة إذا كان ينتظرها، كما في حالة القصة السابقة، ويأتي المثل ليحثه على الصبر، فإن الأخبار التي تعد الآن مجهولة، ستصبح معلومة بعد قليل، تماماً كما أن المغرفة ستبين ما في جوف القدر من طعام. وجاءت القصة مناسبة للمثل، فالشاب الذي يتقدم لخطبة فتاة يكون في انتظار الرد على أحر من الجمر، وربط سؤاله لأمه بموعد تجهيزها لطعام الغداء مناسباً لصيغة المثل. وهكذا وُفق الكاتب في شرح المثل والموقف الذي يمكن أن يستخدم فيه.

أما المثل الذي يقول: (خِذْ عُلُومْ الدَّارْ من يَهَالهَا)، فقد تخيل له الكاتب قصة طريفة تقول: «حَاوَلَ التَّاجِرُ سُلطانُ أنْ يَسْتَرِدَّ المَبْلَغَ الذِي أَقْرَضَهُ لِعُبَيْدٍ. لَكِنَّ عُبَيْدًا تَأَخَّرَ كَثيراً في السَّدَادِ وبَدَأَ

علي عبد القادر الحمادي

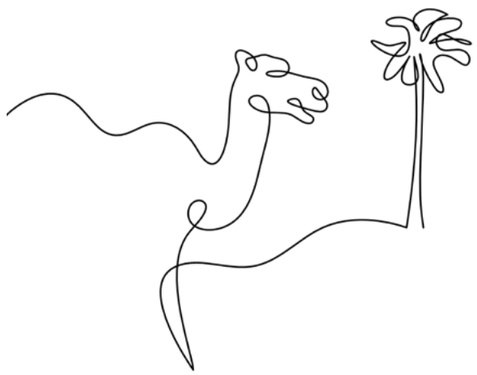

فِي التَّهَرُّبِ مِنْ صَاحِبِ الدَّيْنِ. ذَهَبَ سُلطان إلى بَيْتِ عُبَيْدٍ وقَرَعَ البَابَ، فَخَرَجَتْ زَوْجَتِهِ، فَسَأَلَها عَنْهُ قَالَتْ الزَّوْجَةُ: لقد سَافَرَ. لم يُصَدِّق سُلطانُ هَذا الكَلامِ، وأَخَذَ يَنْتَظِرُ بِجَانِبِ البَابِ، وما إنْ خَرَجَتِ الزَّوْجَةُ خارِجَ البَيْتِ، حتَّى عَادَ وطَرَقَ البَابَ مَرَّةً أُخْرَى. كان عُبَيْدٌ في الدَّاخِلِ فَخَشِيَ منْ افْتِضَاحِ أَمْرِهِ وَأَرْسَلَ ابْنَهُ قائِلاً لَهُ: اذْهَبْ وقُلْ لِذلِكَ الرَّجُلِ إنِّي لَسْتُ هُنا. فَذَهَبَ الطِفْلُ الصَّغَيْرُ بِبَرَاءَةٍ وفَتَحَ البَابَ، وَحِيْنَ سَأَلَهُ التَّاجِرُ: أينَ أبوك؟ ردَّ الطِفلُ: أَبِي يَقولُ لكَ إنَّهُ لَيْسَ هُنا. وهُنا افْتُضِحَ أَمْرُ عُبَيْدٍ وخَرَجَ مُحرَجاً، عندها قالَ لهُ التَّاجِرُ: خِذْ عُلُومْ الدَّارْ من يَهَالْهَا»[3].

وقد أبدع الكاتب في اختيار حكاية تتناسب مع منطوق المثل

وتتناسب مع براءة الأطفال. فالأطفال لا يعرفون الكذب، وبالتالي فإن من يرغب في معرفة أسرار أي بيت فعليه أن يسأل أطفالها. وجاءت الحكاية الطريفة لتؤكد هذا المعنى وتجعل المثل يثبت في عقول الأطفال الذين يسمعون هذه القصة.

والمثل الذي يقول: (اليَمِرْ يَخَلَّفْ رَمَادْ)، تقول قصته: «كَانَ شَيْخُ القَبيلَةِ رَجُلاً كَرِيماً، وَكَانَ جَميعُ مَنْ يَمُرُّ بِخَيْمَتِهِ يَدْخُلُ لِيَتَناوَلَ وَجْبَةَ الضِّيَافَةِ، فَمَجْلِسُهُ مَفتوح على الدَوَامِ، وَالنَّارُ مُوْقَدَةٌ لَيْلاً وَنَهَاراً لِطبخ الطَّعَامِ أو صُنْعِ القَهْوَةِ. وكانَ لَدَيْهِ ابنٌ خامِلٌ بَخِيلٌ، عَكْسَ أَبَيْهِ تَماماً. حِيْنَما مَاتَ الشَّيْخُ أَصْبَحَ ابْنُهُ شَيْخَ القَبيْلَةِ فَلَمْ يَسِرْ سِيْرَةَ أَبِيْهِ، ولم يَفْتَحْ مَجْلِسَهُ لاسْتِقْبالِ الضُّيوف، وكانَ طَوالَ الوَقْتِ يَنَامِ في الخِباء أو يَذْهَبُ إِلَى الصَّيْدِ. ذات صباح مَرَّ عَلَى الخَيْمَةِ نَفَرٌ منَ البَدْوِ الرُّحْلِ، فَلَمْ يَجِدُوا أَحَداً. سألوا عن الشَّيْخِ فَأَخْبَرَهُم النَّاسُ عَن وَفَاتِهِ وَعَنْ سِيْرَةِ ابْنِهِ. حِيْنَها هَمُّوا بالخروج من الخَيْمَةِ، إلا أنَّ أَحَدَهُم تَوَقَّفَ عِندَ مَكَانِ أَثَرِ النَّارِ التي كانَتْ مُوْقَدَةً دائماً فَرَأَى رَمَاداً بارداً، فَأَمْسَكَهُ بِيَدِهِ وَقَالَ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلى مكانِ الشَّيْخِ الفَارِغ في صَدْرِ الخَيْمَةِ: (اليَمِرْ يخَلَّفْ رَمَادْ)[4]».

وهنا نجد الكاتب يحسن الربط بين مفردات المثل أيضاً، وهي الجمر والرماد، والقصة التي تخيلها، فكما أن الجمر قد أصبح رماداً في مجلس الشيخ الراحل، كذلك كان ابنه كالرماد بالنسبة لأبيه الذي كان متقداً كالجمر.

والمثل الذي يقول: (القَطَوْ العُودْ مَا يَتَرَبَّى)، تقول قصته: «كَثِيْرَةٌ هِي المَرَّاتِ الَّتِي نَصَحَ فيها أَهْلُ الحَيِّ سُعَيْدَانَ أَنْ يُؤَدِّبَ وَلَدَهُ مَسْعُوداً، وبُتَابِعَ تَصَرُّفَاتِهِ، ويُقَوِّمَ أَخْلاقَهُ. لكِنَّ سُعَيْدَانَ كَانَ يُصِمُّ أُذُنَهُ عَنْ هَذِهِ النَّصائح ولا يُلْقِي لَهَا بالاً؛ فَحُبُّهُ الشَّديدُ لابْنِهِ كَانَ يَمْنَعُهُ مِنْ ضَرْبِهِ، أو توبيخه، أو حتَّى مُجَرَّدِ نُصْحِهِ. وحينَ يُلِحُّ عليْهِ أَصْحَابُهُ في أَهميَّةِ النُّصْحِ، كَانَ يَقولُ: إِنَّهُ ما زالَ صَغِيراً، وغداً يَكْبُرُ ويَفْهَمُ. ومرت السنونُ، وَكَبُرَ مَسْعُودٌ، لَكِنَّ تَصَرُّفَاتِهِ لَمْ تَتَغَيَّر، بَلِ ازْدَادَتْ سُوْءاً، ولم يَعُدْ والِدُهُ يَستطيعُ السَّيْطَرَةَ عَلَيْهِ أو نُصْحَهُ. ذَهَبَ سُعَيْدَانُ إِلَى أَصْحَابِهِ لِيُرْشِدُوهُ إِلَى أَفْضَلِ طَرِيقَةٍ لِلتَّرْبِيَةِ، فَقَالَ لَهُ أحدهم: «القَطَوْ العُودْ مَا يَتَرَبَّى»، وَكَذَلِكَ فَإِنَّ الشَّخصَ الكَبِيرَ الفَاسِدَ الذِي بَلَغَ سِنَّ الرُّشْدِ مِنَ الصَّعْبِ أن تُعادَ تَرْبِيَتُهُ وتَعلَيْمُهُ مِنْ جَدِيدٍ»[5].

وهنا نجد الكاتب قد اختار قصة فيها قيمة تربوية للأطفال، تبيّن لهم أن التربية في الصغر مهمة، لأن التقويم في الصغر أسهل وأكثر ثباتاً واستمراراً. وجاءت القصة مناسبة لمعنى المثل وشارحة للمواقف التي يُستخدم فيها.

ونختم بالمثل الذي يقول: (الحوارْ مَا تَضِرَهْ دُوسَة أُمَّه)، وتقول قصته: «كانَتْ وديمَةُ تُحِبُّ ابنها «ضاعناً» حُبّاً جَمّاً، وكانَتْ تَقولُ لِجاراتِها: أُحِبُّهُ مِثْلَ ما تُحِبُّ الأَرْضُ المَطَرَ، أُحِبُّهُ كما تُحِبُّ النَّاقَةُ صَغَيْرَها الحوار. وكان ابنُها ضَاعَنُ ظريفاً طَيِّباً ونَبيهاً، لكنَّهُ كانَ كَثِيرَ الحَرَكَةِ، مُشاغباً في بَعْضِ الأَحْيانِ، ويَسْتَمْتِعُ بَعَمَلِ المَقَالِبِ الطَّرِيفَةِ للنَّاسِ. نَهَتْ وديمةُ ابْنَهَا مِراراً وتَكْراراً إلى ضَرورَةِ عَدَمِ إِزْعَاجِ الْآخَرِينَ، لَكِنَّ النُّصْحَ لم يَأْتِ بِنَتيجة، ولمَّا كَثُرَتْ شَكاوَى الجِيْرانِ لمْ تَجِدْ وَسِيْلَةً أُخْرَى للتأديب والتَّهْذِيبِ سِوَى أَنْ تَضْرِبَهُ. هَبَ ضَاعنٌ إلى أَبِيْهِ بَاكياً مُشْتَكِياً على أمِهِ أَنَّها لا تُحِبُّهُ، ابْتَسَمَتِ

الأُمُّ وهِيَ تَنْظُرُ إلى ناقتها وهيَ تَحْنُو على صَغيرِها الحُوَارِ الَّذِي يَتَقَلَّبُ تَحْتَ أَقْدَامِهَا ثُمَّ قَالَتْ: (الحوارْ مَا تَضِرَه دُوسَة أُمَّه)»[6].

ونجد الكاتب قد شرح معنى كلمة الحوار بقوله على لسان الأم: «أُحِبُّهُ كما تُحِبُّ النَّاقَةُ صَغَيْرَها الحوار»، فيعرف الطفل أن المقصود بالحوار هو صغير الناقة.

كما أحسن ربط مفردات المثل بموقف الأم التي تحب ابنها كما تحب الناقة حوارها، وجعلها تنطق بالمثل وهي تنظر إلى الناقة وهي تحنو على حوارها، فجاء كل ذلك مناسباً لمعنى المثل، وشارحاً لتشبيه قسوة الأم على ولدها بوطء الناقة لحوارها، دون أن يؤذيه ذلك، ودون أن يكون دليلاً على عدم حبها له.

وهكذا رأينا كيف استطاع الكاتب الدكتور علي الحمادي، صياغة قصص وحكايات جميلة ومسلية للأمثال الشعبية الإماراتية، تقربها من أذهان الأطفال وتبسط لهم ما تحتويه من حكمة وعبرة، وتجعلهم يحفظونها ويرددونها في المواقف المماثلة ■

شاعر وباحث من الإمارات

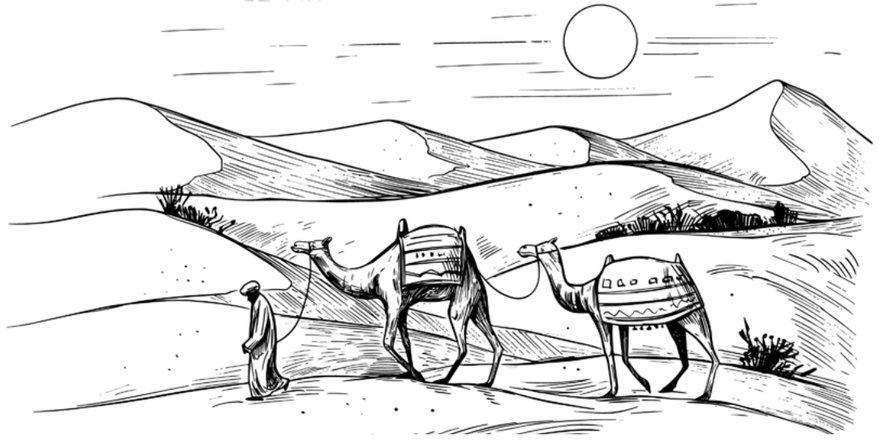

الهوامش والمصادر:

1. دوك: خُد. الإِراب: الجِراب: وعاء مصنوع من سعف النخيل يُحفظ فيه التّمر، عبد الله حمدان بن دلموك، المتوصف: أمثال وحكم من الإمارات، مركز حمدان بن محمد لإحياء التراث، دبي، 2014م، ص 281.
2. علي عبد القادر الحمادي، قصص الأمثال الإماراتية، دار البراق لثقافة الأطفال، بغداد، 2016م، ص 19.
3. يهالها: أي أطفالها، المرجع السابق نفسه، ص 22 .
4. المرجع السابق نفسه، ص 26.
5. المرجع السابق نفسه، ص 27.
6. المرجع السابق نفسه، ص 28.